الفصل الثاني

نحو مقاومة جديدة؟

"على الرأسمالية أن تدعم محاكمتها أمام القضاة الذين يحملون في جيوبهم الحكم عليها بالإعدام. يتهيأ هؤلاء القضاة للنطق بالحكم، مهما كانت الأدلة التي يستند إليها المحامون، فالنجاح الوحيد الذي يمكن أن يسجله الدفاع القوي هو تغيير قرار الاهتمام".

Joseph Shumpeter, Capitalisme, Socialisme et Démocratie.

كيف يمكن الحيلولة في مثل هذه الظروف دون اندلاع عصر جديد من الثورات كانت سياتل منطلقها وبورتو اليغر التعبير الساطع عنها.

obeikandi.com

ولكن هذه الاعتراضات تتميز بخاصية جديدة، وهي كونها لا تقدم من الحلول سوى النقد الدائم، دون تقديم نموذج عالم مغاير. إنها تشبه حال رجل يضرب رأسه على الحائط لتليينه ما دام لم يتمكن من حفر باب لاجتيازه.

"كيف يمكن أن نكون معادين للرأسمالية ؟" تساءلت عام 1997 مجلة من المجلات الفكرية، مما يبرهن على أن الموضوع لم يعد مدار إجماع[24].

ذلك أن مناهضة النظام الرأسمالي تتزايد بقدر ما تتمحي ذكريات العهد السوفياتي وفضائحه، ومن المتوقع أن تتضاعف لأن الرأسمالية -التي ليست لها بدائل ناجعة- تنوء على مصير العالم كالقدر المحتوم، حتى ولو كانت لا تزال بعيدة عن الانتشار في كل مكان.

لا نعترف لها بأي فضل، وإنما نحملها مسؤولية كل ضرر. ولكن هذا الوحش الذي نشتمه طول الوقت، يظل من نواح عديدة وهماً مجرداً. نلاقي العناء لإيجاد التسمية المناسبة لهذا المأزق، فعبارة "عولمة" لا توحي بمواجهة عدو ذي صدقية كبيرة.

ولذا نلجأ في اتهاماتنا إلى المغالاة في استخدام صيغ التفضيل، فنحن نرفض الليبرالية القصوى والبورجوازية القصوى والإرهاب الأقصى، والقوة العظمى الأمريكية، وكأن إضافة أداة

تصدير للعبارة تجلي الغامض وترمي بالموضوع الموسم بالصفة المذكورة في خانة الفظائع.

ولكن ثمة ما يبقى بعد النعت بما هو "أقصى" و "أعلى" وما هو "أبعد". فها نحن نحتج في أيامنا ضد استخدام ألفاظ مبهمة، لا وجه لها، مثل: الاتفاق المتعدد الأطراف حول الاستثمار (AMI) ومجموعة السبع (G8) وصندوق النقد الدولي (FMI) ومنظمة التجارة العالمية (OMC) والأعضاء المعدلة جينيا (OGM) والبنك الدولي، وليس فقط ضد طبقات وأشخاص.

وربما كان ذلك هو الأسوأ، أي عدم القدرة على تحديد وتعيين ما نعاني منه؛ لأن ذلك يجعلنا عاجزين على أخذ مسافة منه.

متاهة اللعن:

من هنا يتولد بصفة جامحة الشعار النقدي لدى يسار اليسار، كما لدى اليمين المتطرف. إن هذا الشعار بمثابة الخمر المسكر القوي وإن كان لا يفضي إلى أي شيء ملموس، وإنما يستنفد غالباً في المشاكسة، في مواجهة عقيمة مع ما ينفر منه.

ذلك أن مناهضة العولمة هي إلى حد الآن على الأقل خطاب يقدم على شكل تعويذة تحمي من شر الأشياء: فالمقترحات الملموسة تظل متلعثمة، ما عدا الدعوة الطقوسية إلى التظاهر في كل مرة يجتمع عظماء هذا العالم في مكان ما من المعمورة.

obeikandl.com

وكأن بعد الرجاء في الدين قد أزيح ولم يبق سوى بعد اللعن: ندوس هذا العـالم الدنس الذي لا يمكن انتـهـاك حـرمـتـه، ونود أن نكون خزنة كئيبين لجهنم المعاصرة.

لقد ابتعدنا عن روح الاعـتدال التي كانت سائدة عشية عام 1989، فقدنا الصرامة والاعتدال في خطابنا الفكري الذي اتسم بهما في فرنسا بتأثير بعدي من ريمون آرون.

نركن إلى حـد الغـثيـان للذة القـدرة على سب هذا المجـتـمع لنتقيأ كامل المرارة، ونلجأ لسلاح محاربة الفاشية، ذلك السلاح الثقيل المفيد دوماً عندما تعوز البراهين. وما نخن سائرون في درب "الحماقة الكلية" حسب عبارة سارتر.

وقد حازت قصب السبق في هذا المجال فيفان فورستر التي تخطت حد المقبول بتشبيهها "الرعب الاقتصادي" بمعسكرات الاعتقال خلال الحرب العالمية الثانية، وبتوقعها "مجازر جاهزة على يد سادة العالم[25].

فالرأسمالية ليست من هذا المنظور سوى الأخت التوأم للنازية، وسيحقق لها وجهها المقبول ما لم تحققه من مشروع إبادة بعد خمسين سنة من هزيمة الفاشية.

وبانفتاح هذه الثغرة، أصبحنا نستخدم الاستعارة النازية بمعان شتى، مما أرجعنا إلى أسوأ مراحل الصراع بين الشرق والغرب.

فهذا طبيب نفساني يدعى كريستوف دجور يكتب صفحة جديدة في تاريخ التشكيك في المحرقة اليهودية، في كتابه "معاناة في فرنسا" الذي ذهب فيه إلى تشبيه الإطارات العاملة في الشركة في تواطؤهم مع أرباب العمل لاضطهاد الشغيلة بتواطؤ العديد من الألمان في إبادة اليهود[26].

أما دانيال ميتران فقد أكدت في براغ، بمناسبة إحياء الذكرى العاشرة للثورة المخملية (1989) أن اختفاء الاستبداد الشيوعي فتح الطريق أمام وباء أسوأ، هو "الاستبداد الليبيرالي" المفروض في العالم أجمع[27].

أما الكونفيدرالية الزراعية فقد اتهمت "الشركات المتعددة الجنسية التي لا وطن لها" بأنها تثبت "فلسفة قريبة من الفاشية" أما القائد ماركوس فقد ندد بـ "الفاشية الليبرالية" (لموند ديبلوماتيك – أغسطس 2000) التي ينتمي إليها كل من لا يقف إلى جانبه (كما هو شأن أوكاتافيو باث الذي تجرأ على نقده).

فبالنسبة لعبقري العصابات الإعلامية المذكور الذي لا يتكلم عن نفسه إلا بضمير الغائب مثل آلان دلون، تحدد العولمة بأنها هي "الحرب العالمية الرابعة من أجل السوق الليبرالية الجديدة".

وها هو أيضاً كاتب رائج، يعتمد الاستفزاز مقارناً في رواية

obeikandl.com

يغلب عليها بطر الاستهزاء بين الإعلان الترويجي ودعاية غوبلس دون أن يثير أي اعتراض (لست مغفلاً إزاء النسق القائم ومعارضتي لهذا النسق)[28].

وكما الأمر دوماً، فإن المرجعية العدمية تغني دوماً عن التفسير والفعل.

فهذا التبكيت بلغ من الهذيان حداً لم يعد يتصل بالواقع. فأسوأ أشكال الشطط تتقبل دون ردة فعل. هكذا تلتقي الفظاظة والخمول. فالغلو يلازم الجبرية: إذا كنا نختنق في قفص فولاذي، فليس بإمكاننا فعل شيء سوى الاعتصام بالمواقف المتطرفة واللجوء إلى المغالاة في الكلام، فالتفكير ينتفي عندما يراد التخلص من إكراهات اللغة، كما قال نيتشة.

وبصفة أشمل، إن التهجم على الرأسمال الضخم وعلى "المطبلين الإيديولوجيين" (سوزان جورج)، هو في فرنسا بداية نمط من حسم صراع عائلي، ونقل إشكالات وطنية إلى الأبعاد الكونية.

إنه قبل كل شيء هجوم على اليسار الرسمي، بتحميله مسؤولية جريمة الإصلاح والمصالحة مع الليبرالية المشنعة. نشن الهجوم على "كلاب الحراسة الجدد"[29] الموجودين بكثافة في الفقاعة الإعلامية، ولكن الأمر لا يعدو التمييز بين أولئك المنافقين الرديئين ونحن الأصفياء، الأصليون. (لنا الحق في الإشارة إلى الارتباط الوثيق القائم بين الصحافة الموسومة "بالحرة" وملاكها

وبالمجموعات الإعلامية الكبرى، بما ينتج عن ذلك من مخاطر مصادرة، ولكن يجب أن لا ننسى مع ذلك أن أسوأ عدو للحقيقة "ليس الكذب وإنما القناعات (نيتشة). فإذا كان كثير من الصحف المناضلة أو صحف "يسار اليسار" لا يقام لها وزن، فذلك عائد إلى التزام محرريها الذي يجرهم عادة إلى إخفاء بعض جوانب الواقع التي لا تتلاءم مع "قناعاتهم" (أي مع إيديولوجيتهم). لنلاحظ هذا الأمر البالغ الغرابة المتمثل في العودة الهزلية لأجواء 1968 ضد ثوار 1968 أنفسهم، ورغبة من ولدوا متأخرين جداً في القيام بتمثيل كوميدي لما كان من قبل محاكاة لأحداث أخرى.

إن الأمر يتعلق بانتصار الجيل الببغائي الذي يعتب على الجيل السابق عليه بأنه خان مثله، ويقدم نفسه بأنه الوريث الحقيقي، الذي سيشن مقاومة جديدة.

فالحالة الراديكالية الشاذة أصبحت واجباً لدى أولئك الذين فاتتهم سنوات الستينيات والسبعينيات؛ ولذا رفعوا العداء للرأسمالية راية جديدة، خصوصاً أن هذا العداء قد أضحى أكثر قيمة، بانتفاء النماذج المضادة المفجعة القائمة في الاتحاد السوفياتي والبلدان الدائرة في فلكه.

إن الذي صمد بعد فشل الاشتراكية ليس هو الإيمان بها، بل إن فشل الاشتراكية الحقيقية هو الذي ولد إيماناً جديداً بها، بريئاً من كل تبعية للأنظمة المشبوهة.

ها هي الإمعات الإيديولوجية تعود بقوة: فنرى يساريين سابقيين تحولوا إلى الليبيرالية في عهد ريغان، يعودون في سن متأخرة إلى نزوعهم الشبابي في معاداة الرأسمالية متهيئين لشوط ثان، متخصصين في تغيير جلودهم في كل الاتجاهات، في انتظار الثوب القادم.

كم هو غريب فعلاً هذا الافتتان بصورة المتمرد الذي يلازم على الأخص الفنانين والمفكرين والكتاب والسياسيين.

علينا أن نرى فيها دون شك إحدى القيم التي تلوذ بها النرجسية المعاصرة، في حقبة يسود فيها الإجماع الشامل حيث يتساوى الأفراد والمذاهب ويتشابه جميع الناس.

كما تخفي هذه الفتنة الحنين إلى زمن، كان فيه صاحب القلم والفنان والعالم والموسيقي يستمدون تألقهم من الدخول في صدام مع السلطات القائمة.

وهكذا كان العبقري المعزول الذي يواجه بلادة معاصريه، ينتج الأعمال الرائعة التي يقابلها استنكار الجميع، ويقدم النظريات الاستفزازية التي تنبع من عباءة السرية والاضطهاد.

فالإبداع كان دوماً بمثابة الاعتداء على نظام العالم، وتقويض مألوفات اللغة والتصور والتناسق، وفتح ثغرة داخل كون مستغرق في اليقينيات من أجل "دفع عربة الشعب المتثاقلة إلى الأمام" (كاندسكي).

فالمتمرد يوفق بين صورتين مميزتين: صورة الإنسان الاستثنائي الذي يعلو فوق الجماهير، وصورة الإنسان الفاضل الذي يضع مواهبه في صالح الآخرين، ويضحي بنفسه من أجل سعادتهم.

إنه يجمع بين النخبوية والقداسة، ويحوِّل صلابة شخصية قوية إلى قربان مقدم للبشرية برمتها.

وهكذا ندرك كيف أن المتمردين الحقيقيين قليلون: إذ لا بد لتحمل الأذى والرفض والكراهية والسجن من الانحدار من طينة لا ينحدر منها أغلب الناس.

لابد لذلك مما يشبه الجنون، ومن كبرياء اليقين بأن المرء في حق ولو عارضه الناس أجمعهم.

ولندرك بعد هذا كله أن الحداثة قد جعلت من ديانة العصيان قاعدة ذهبية؛ لأن حدثها المؤسس الذي هو ثورة 1789 قد أقام قطيعة جذرية بين القديم والجديد.

فمن العالم المعذب إلى حد الشهادة الرافض للحقائق الراسخة، إلى الفنان الجائع الذي يشق طريقاً غير مسبوق لفنه وسط السخرية والاستهزاء، أصبح التمرد ضمان الجدة والأصالة معاً.

بخيل سفيه، جشع:

إن البخل هو مرض الحرص، والسفه هو مرض التبذير. الأول هو حب المال بصفته وسيلة مطلقة تتجاوز كل الغايات: لا يمكن أن يوازيه أي استمتاع لأن كل أصناف الاستمتاع تتجمع فيه ضمناً. فالمكتنز لا يجمع الأوراق النقدية وقطع الذهب إلا ليمنع نفسه من الاستفادة منها، متيقناً أن كنزه لا يمكن أن يخذله بالنظر لطابعه التجريدي ذاته (جورج سيمل). أن نقتطع من الكنز جزءاً يسيرا، هو كأن نقتطع من جسمه عضواً، كأن نسلخه حياً. إنه ثروته أكثر كثيرا من كونه يملكها، فهي جزء لا يتجزأ من وجوده.

أما السفيه فهو على عكس ذلك لا يفتأ يعلن كل يوم من خلال الاستهلاك الجارف احتقاره للمال. لا يتردد أمام أي حفلة، ولا مأدبة، ولا شراء أي بضاعة باهظة الثمن، وفي اللحظة التي يقذف بالدراهم عبر النافذة، يرصد الإعجاب والنشوة في أعين الآخرين الذين يتوجونه جواداً كريماً.

إنه يسعى لإقناعهم أن هذا المعدن الدنيء لا يحرك منه ساكناً، ولا ينفك يذم شح بني جلدته وشغفهم بالمال. ولكن حرصه على المبالغة في صرف المال بصفته سيداً كبيراً يبرهن على أنه لم يتخلص تماماً من الشيء الذي ينفر منه.

هو نفسه لم يحسم أمره مع هذا الإله الزائف، وما عطاياه

الكريمة إلا عطايا خادعة، تنم عن دخوله في تصفية حساب لا نهاية لها.

فالبخيل والسفيه أخوان متناقضان، وكما بيَّن جورج سيمل هما وجهان لعملة واحدة، يتفقان في تقديس المال، أحدهما بكنزه والثاني بتبذيره.. فالمقتصد والمستمتع ابنان لأب واحد.

أما الجشع، فعلى الرغم من صورته السلبية، إلا أنه بطل الرأسمالية الحقيقي، يكسب أرباحه بطريقة منهجية وعقلانية. ربما كان إنساناً شرهاً لا يشبع، ولكنه إنسان له هوى واحد، دائم ومتوقع، يشتهي أرقاماً يسره تكاثرها المحموم، تولد لديه إثارة لا تنضب.

هو دوما في حالة هيجان، سواء تعلق الأمر بعملية في البورصة، أو عروض عامة للشراء، أو بتصفية أو دمج، يتحرك بحسب وتيرة إفراغ الأدرينالين.

فالمال بالنسبة له مصدر خصوبة لا تنضب، ومادة تسمو بالعالم، تقود إلى جمالية الهائل ولما كانت لا توجد مقادير لا يمكن تجاوزها، فإن همته ونشاطه ليس لهما حدود. إنه صياد للمستبعد، يعقد صلات غرامية مشحونة مع الأسعار والحصص، يشم الملايين المحتملة، ومع كل خطر قائم يحس بشهوة غير عادية، هي شهوة الانحطاط أو المجد.

obeikandi.com

فالبخيل هو شخصية الاقتصاد الساكن، والسفيه شخصية الاقتصاد البذخ، والجشع شخصية الاقتصاد الزاهر. ونحن نجمع بين القليل من خصال الثلاثة.

فقد نقتصد من مبلغ تافه، وقد نلتهب لنزوة عابرة، وقد نكدس بنهم لا حد له، ولكن ثمة لحسن الحظ علاقات أخرى بالعجل الذهبي أكثر هدوء وتجرداً.

بيد أن المال بالنسبة للذين يعبدونه ليس مجرد شر يصنع خيراً أو خيراً يصنع شراً، ذلك أنه السماد الذي تنمو فوقه زهور الحضور -حسب صورة أميل زولا التي نستعيدها هنا- هو أيضاً مواساة خارقة. فبقدر ما نسعى لتحصيله أو حفظه أو إضاعته، فإنه يستوعب الطاقة كلها، ويكتفي بذاته، ويمنح الحياة معنى مكتملا. إنه مسكون بقوى جد هائلة بحيث لا يمكن أن يعاني من أي منافسة. وكما أدركت الكنيسة فإن المال هو الصارف الأكبر عن عبادة الله، والقادر على استيعاب تعددية العالم في وحدته، وعلى منع أي حواجز تحول دون انتشاره. إنه حقاً قوة روحية، وهو دون شك المطلق الوحيد الذي نسمح به في عصر النسبية.

ولكن الديمقراطية هي، على عكس الاستبداد أو الملكية، النظام الذي يتغذى من أعدائه، إلى حد الهلاك، وهي النظام الذي جعل من النقد إحدى مرتكزاته: ومن ثم فإن الاحتجاج يخدمها،

فهو أشبه ما يكون بالمنعكس اللاإرادي فيها، كما هو أعدل شيء قسمة بين الناس.

وكما أن البورجوازية قد استوعبت في نمطها الحياتي الحركات التي كانت تطمح لقلبها، فالذين يدعون لقب التمرد الرائع لا يعدون ولا يحصون: فالتمرد يطمئنهم إنهم موجودون، وأن لديهم هوية، وأنهم أفلتوا من الرتابة العامة.

فالطريد الملعون لم يعد هو الفنان الذي تدعمه أو تدلله سلطة الشركة أو الدولة، بل هو البورجوازي.

فإذا كان عصرنا يمجد دون حساب صورة المنبوذ، ويتزلف لمن يحمل هذه الصفة، فليس ذلك لمحض الرغبة في تعذيب النفس، وإنما لأنه يجد في هذا النبذ وقوداً أساساً يقتضيه تحوله. فمن اللياقة أن تكون ضده.

المنبوذون الموجهون:

وهكذا تتزايد الانتهاكات المنمطة: الانتقادات المروجة للإعلانات، والانتقادات الإعلامية للإعلام (آه! ما أمتع سب التلفزيون على الشاشة الصغيرة!) والانتقادات الاستعراضية للاستعراض.

لقد أصبح الانتقاص مما يتم الانتفاع منه أحسن تعلة مريحة: يتعين على كل بضاعة يراد ترويجها أن تضيف ما يوجه إليها من نقد إلى طرق استعمالها. وهكذا ينتشر نمط معين من أكاديمية

التمرد، إلى حد أن ثقافة الاستفزاز الأكثر حدة غدت ثقافة رسمية تضمن أحسن المغانم في مستوى الخطاب على الأقل للمهمشين والمنحرفين وغريبي الأطوار وصرعى الموضة.

من هذا المنظور، تشكل رسائل الطعن اللاذع في العولمة بالنسبة لنا جميعاً من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين نمطاً من اللغة القومية. على كل أحد أن يترنم بها في كل لحظة. (دون أن ننسى القدح في عبارة "الليبرالية" التي أصبحت محرمة، في حين أننا إذا راعينا معناها الحرفي أمكننا القول إن فرنسا ليست دولة ليبرالية، بل هي في طور التحول إلى الليبرالية؛ لأن الدولة لا تزال تدير قرابة نصف الثروة الوطنية).

ومن التناقض اللفظي أن يدعي المرء متمرداً منحرفاً، لأن ذلك يؤول إلى تحويل وضع استثنائي إلى حالة مبتذلة. ففي المجتمع الذي يود فيه كل أحد أن يكون متميزا، تصبح نزعة التفرد آلية ترق مرغوب فيها للغاية: فاعتبار الشخص منبوذا يكسبه تألقا خاصا، فتراه يرغب في أن يسقط على نفسه هالة المعذب الغامضة دون مخاطر قدر الإمكان (في حين أن المعذبين الحقيقيين ليسوا متألقين، بل يثيرون الشفقة، وأحياناً الاشمئزاز، فعنادهم أقرب للجنون، و لا متعة في مصاحبتهم).

فثمة الكثير من وجهاء الأدب والصحافة والجامعات والسياسة، الذين يتظاهرون بأنهم مارقين، أما في فرنسا فقد أصبح الخط السياسي المستقيم هو ادعاء عدم الاستقامة.

تلك طريقة للأكل على كل الموائد، للاحتفاظ بقدم في الداخل وقدم في الخارج، بحيث يكون المرء في وضع الخارجية المطلقة في حين يتمتع في المقابل بمقام مستقر وبكل ميزات الشهرة.

مستترون وراديكاليون معاً: البورجوازي الصغير ينبعث من خرقة المحارب المغوار، والانتفاض أصبح مادة استهلاكية شعبية، تكاد تكون من ملحقات الموضة.

إن الأمر يتعلق بتمديد العادي والمألوف إلى حالات كانت تعتبر سابقا من قبيل الهامش والرذيلة والجريمة، فنعاني حالياً من عدد من التواضعات ليست الثورة سوى نوع من أنواعها. (ثمة نموذج آخر قريب من هذا الوضع يعود للقرن الثامن عشر هو نموذج الإدانة الدفاعية، وهي طريقة لإبراز الفجور بلطف تحت ستار الدفاع عن الفضيلة، يتم تعمد إدانة التفسخ والعنف والسياحة الجنسية مع عدم الكلام إلا في هذا الموضوع. وبذا نوطد ما نزعم محاربته).

لقد لاحظ كثير من الأطباء النفسانيين أن أمراض الأنا المعاصرة كالنرجسية والاكتئاب والاستنكاف والهروب كانت بالماضي أفعال تمرد: تحرير الطاقات الحيوية، عصيان الفرد الجموح، عبادة الذات في مواجهة الرعاع.

وما دام من النادر أن نجد بشراً قادرين على تحمل عداء من هم حولهم، فإن التفاخر بالتمرد يوفق بين المجد والطمأنينة. تقيؤ المجتمع والعودة كل مساء لمخدع النوم: تلك هي دروب الأكاديمي

الجديدة. فصورة المنشق تحمل مزايا رمزية هائلة في إستتيقا الإغراء ما بعد الحديثة فمنبوذو الرفاهية كثيرون، يتكلمون باسم الفقراء والمقصيين. فلقد ظهرت موجة جديدة من المنبوذين الهادئين الذين يزدهرون بإدانة ما تعانيه الجماهير من استعباد فظيع؛ في حين ينعمون برخاء وهناء بفضل هذا الحرمان. فقد أصبح باينرج (بطل الكاتب الفرنسي رابليه) هو الذي يرفع الأعلام الحمراء والسوداء.

وبطبيعة الأمر لن تتوقف الثورة أبداً. فثمة حق مقاومة غير ملموس لكل شخص أو أقلية مهددة ويتعين التنويه بآلاف محاولات المظلومين والمضطهدين للتخلص من الإذلال، ولفرض الاعتراف بكرامتهم على الآخرين.

ولكن توجد على الأقل أربعة مصائر بالنسبة للتمرد: الانتهاء بالتحول إلى مستبد أو مهرب مخدرات، أي نبذ خرقة المضطهد لارتداء حلة المستبد. الموت ممتشقاً سلاحه، البقاء في ذاكرة الناس شهيداً، فأجمل الثورات كانت ثورات خاسرة لم تلوث طهارتها بحمام دم. الانتهاء في مرحلة الشيخوخة إلى نوع من الصعلوك المرفه، يمتهن العناد، أي التحول بتقدم السن إلى نمط من الفكاهي السخط، وذلك دجل ينجح فيه عدد من الماكرين الذين تعودوا الغضب الاستراتيجي والمهارات المحسوبة بمهارة، الذين يعرفون كيف يقايضونها لأجل مصلحتهم الشخصية. وثمة أخيراً مسلك أقل مجداً ولكن أكثر جدوائية هو تأسيس حزب جديد، وإلزام المجتمع

ولو بالقوة عند الحاجة على سماع صوت أولئك الذين كان يكرههم وكانوا يستغلونه إلى حد ذلك الوقت.

فسواء كانوا زعماء وطنيين أو قادة نقابيين، أو رؤوس أقليات، فإنهم يريدون من خلال صراعات اجتماعية ذات صلة بالهوية أو القومية أن يتم الاعتراف بهم، وأن يندمجوا في شرعية، لا يودون هدمها وإنما توطيدها.

وبعبارة أخرى، كل ثورة ناجحة تفرز لوبيا يضغط بكل ثقله في ما بعد للدفاع عن مصالحها. إنها نهاية أقل رومانسية من الثورة الدائمة، أو النار المطهرة، ولكنها أكثر نجاعة منها إلى حد لا متناه.

تتعين الإشارة في هذا المنظور إلى قدرة المناضلين السابقين المثيرة على إنشاء شركات مربحة (لاحظ جيل 1968)، وعلى إدخال الثقافة المضادة في الدورة التجارية، مما يذكر بقدرة الطوائف الأزهد في المال على تحصيل ثروات ضخمة، كما هو شأن المورمونز في الولايات المتحدة، والجانيس في الهند، والمريديين في السنغال، وكأن ثمة قرابة عميقة بين عالم المثال الزهدي وعالم التجريد المالي.

إنما الذي تغير في القرن العشرين، هو أن الثورة فقدت براءتها، فلم تعد تؤسس شرعيتها بذاتها، ولم تعد لها الحقوق كلها، بل أصبح يتوجب عليها أن تبرر في قيامها العالم الذي تبشر به، وأن تبرهن على أنها ليست موجهة بإرادة الانتقام المحضة، ولا بالحقد المريع(30).

OpenKandil.com

فربما كان لنا دوماً الحق في أن نتمرد، كما كان يقال سابقا، ولكن ليس لنا الحق في عمل كل شيء عندما نتمرد: فالحق في التمرد لا يبرر المظالم ولا الجرائم ولا الاعتداءات باسم معذبي الأرض.

وهكذا عندما اعتدي في خريف 2000 بعض الشباب الذين ينحدر أغلبهم من أوساط الهجرة على أشخاص من ذوي الديانة اليهودية، فإنهم تماهوا ربما عن حسن نية مع الانتفاضة التي كانت في أوجها في الأرض المحتلة. إنهم بذلك يكررون أحداث المحرقة والمطاردة اليهودية باسم الدفاع عن إخوانهم الفلسطينيين الذين يتعرضون لعنف القوات الإسرائيلية[31]. (تلتقي في بعض الأنحاء المحدودة جداً من الجانبين نزعة العداء للسامية المألوفة لدي اليمين المتطرف ونمط آخر من هذه النزعة خاص بالعالم العربي، هو الآن في أوج التوسع. ويمكن لهذا الاقتران أن يتعلق بجوانب أخرى مثل الموضوعات الجينية ومعاداة اللواط والعنصرية).

وذلك هو شأن منظمة الايتا الباسكية التي حاربت بشجاعة الدكتاتورية الفرانكية أو تحملت في سبيل ذلك خسائر بشرية فادحة، ثم تحولت منذ انتقال إسبانيا للديمقراطية إلى منظمة استبدادية تهيمن بالعنف والقتل والإذلال.

يجب التنبيه في هذا السياق إلى أن الفاشية الجديدة معادية للفاشية من حيث الخطاب، تتدثر بأثواب المقاومة البراقة ضد النازية لضمان استمراريتها. (فلتنتظروا ميلوفيتش، ولتنظروا كذلك

obeikandi.com

لمؤتمر دوربان ضد العنصرية عام 2001 الذي انتهى بصيحات "الموت لليهود" وبالتغطية الشاملة على مسؤولية العرب في استرقاق الأفارقة).

فالمضطهدون السابقون فقدوا بعض طيبتهم، فهؤلاء بالذات الذين يرجى منهم الانعتاق والخلاص قادرون على ممارسة أنماط جديدة من الاستبداد، أقسى ما فيها أنها تتلبس لبوس العدالة.

إن مصير كل انتفاضة هو أن يستحوذ عليها لزاماً، بمعنى أنها ستنجح، فتتحول إلى حقوق جديدة، وإمكانات غير مسبوقة حتى ولو لم ينته الصراع.

فربما كانت الثورة هي منطلق البشرية، وليست نهايتها: فهذا القوس العدمي لا بد أن يغلق في يوم ما، برفض العنف لإقامة شكل معين من الشرعية (وإلا انجرفت الأمة بأكملها في هوة من الدمار لا مخرج منها).

فالثورة لا تعترض على المجتمع إلا لأجل توسيع إطار المجموعة البشرية وتحسين وضعية البؤساء.

فطموح المحرومين كما هو جلي هو أن يصبحوا بشراً مثل الآخرين، وليس أن يمتازوا عنهم.

فنحن بعيدون جدا عن رمزية التمرد السوداء، وعن حماس الرفض الكبير، بيد أن كل سلطة متبصرة تعرف أنه من الأفضل استيعاب مطالب الشارع، بدلاً من قمعه والقضاء عليه بكل بساطة.

ثمـة بطولـة التـمـرد والإضـراب العـام، ولكن ثمـة أيضـاً المآل العـادي للمـزايا المكتسـبـة التي تجنى عـبـر النقـاشـات المتكافـئـة والمفـاوضـات النقـابيـة والاتفـاقـات الحكومـيـة. فـالتـحـرر ينبع من الملحمة، أما الحرية فتنبع في الغالب من التفاهة، عندما تصبح العـوامل المرتبطة بانهـيـار الوضع القـائم من مكونات هـذا الوضع. يمكن أن نأسى لذلك، لكن هكذا تتطور الأشياء، فاحتشام بعض "المتـمـردين" الشـبـيـه بحـيـاء العـذراء الشـرود ينم عن جـهل كـبـيـر بالتاريخ، فالبشر يحاربون دوماً من أجل ظروف عيش أحسن. ولا عيب في تحقيق الغاية: فالمكسب هو الرغبة المعلنة لكل كفاح.

لقد أطلق مارسال جوهاندو قولته للمتظاهرين الباريسيين في مايو 1968: "ستصبحون في النهاية موثقي عقود". وقد صدقت المقولة، فغدوا كلهم باستثناءات قليلة وجهاء، ولهم الحق في ذلك.

ويمكن أن نخمن أن الشبان الراديكاليين اليساريين الأنيقين والمرحين، سيغدون هم أيضا في مواقع الوزراء والبيروقراطيين وأرباب العمل والأكاديميين.

وكما قال بعمق جورج ولينسكي: "لقد صنعنا مايو 1968 حتى لا نصبح ما قد كناه من بعد".

وليس في الأمر أي فضيحة: فكل جيل لا يمكنه أن يتحمل إلا مسؤولية تاريخية محدودة قبل أن يدرك أن أفعاله انقلبت ضده وأفلتت منه.

Obeikandi.com

فكما أن مصير البرولتاريا كان التبرجز (ما زال يوجد عمال ولكن لا توجد طبقة عاملة)، فإن مصير المتمردين هو أن يصبحوا أعضاء في المؤسسة، من حيث هم رؤساء للنقابات.

ولقد كان في نهاية المطاف الزعيم المتمرد ماركوس أكثر قيمة وهو يستقبله الرئيس في سانت فوكس في مكسيكو من تشي غيفارا وهو صريع مثل الكلب في الغابة البوليفية، إلا بالنسبة لمتعهدي الإثارة الذين يروجون دون انقطاع صورة المحارب المصلوب (إن ابن لادن هو الآن على الأقمصة، وسينتهي ككل عدو للنظام القائم إلى رسم في ديزناي!)

اللامساواة الملهمة واللامساواة المرهقة:

تظل اللامساواة دون شك المبدأ المحرك لمجتمعاتنا تشكل أفقها الرمزي، لأنه لم يعد ثمة شيء بدهياً. فالتراتب أصبح اعتباطياً ولم يعد مؤسساً على التقاليد.

من ماركس إلى حايك، ومن اليسار إلى اليمين، تبنت كل الاتجاهات بطريقة أو أخرى نموذج المساواة، طامحة إلى إعطاء الأفراد إمكانات متكافئة، سواء في مجال الحقوق أو الفرص أو الموارد.

كل حالة لا مساواة يجب اليوم أن تبرر وجودها بادعاء إقامة مساواة حقيقية في موقع آخر، في قطاع يعد أساسيا (آمارتيا

سن). فإذا كان الليبراليون مثلا يرفضون تدخل الدولة، فذلك لأنهم يعتقدون أن غياب التنافس يشجع الامتيازات، وبالتالي الفوارق. لماذا هذا التوافق بين إيديولوجيات متعارضة لا تختلف إلا من حيث الوسائل؟

ذلك لأن اللامساواة إزاء المرض والجوع والموت هي قصور في الحرية الفعلية، أو هي تحرم الحرية من وسائلها، وتحولها إلى قشرة فارغة. إنها تعوق تحقق الإنسان، وتخضعه للخوف والحاجة، وتمنعه من الاختيار بين عدة أنماط من الحياة. فإذا كانت توجد تباينات إيجابية من حيث كونها تلهم المبادرة، فإنه توجد أصناف كثيرة من اللامساواة محبطة باعتبار أنها تبدو ثابتة، منقوشة في نظام الأشياء.

ولكي تسير الزوبعة الاجتماعية سيراً عادياً، يجب أن لا تبدو الهوة بين الأعلى والأسفل غير قابلة للتجاوز، وأن لا تكون بمسافة ابتعاد ميكروب عن نجم. أي باختصار، يحب أن لا يغدو الاختلال مرهقاً، بحيث يحطم كل معنى للتنافس ويتنكر لمعنى الحياة المشتركة.

وبعبارة أخرى، إن "المجتمع السليم" هو ذلك الذي يضاعف فرص الجميع، ويسمح لكل الناس ببذل الجهد وإثبات القدرات دون أن يدمروا أنفسهم داخل بنية جد قاسية. فهذا المجتمع لا يكون

سليماً إلا في حالة واحدة، هي أن يكون متكتماً، لا يكاد يرى، ولا يفرض نفسه على مواطنيه.

فالمهم بالنسبة للأمم مثل الأفراد وما أبعدنا من ذلك هو أن يحتل أحد بصفة دائمة الموقع الأول - وأن يعاد دوماً توزيع أوراق اللعبة، كي يستمر السباق (وذلك ما تفيد فيه من بين أشياء أخرى الضريبة والقانون).

فالديمقراطية لا يمكن أن تقبل بصفة دائمة الهوة بين مبادئها وأفعالها، إلا إذا أرادت أن تفرغ المبادئ من دلالتها.

فعوضاً عن قيام مساواة مجردة تفضي للجمود، لا بد من التأكد أن الطبقات والنخب والأفراد يتحركون، وأن ليس ثمة تجلط أو تخثر يكبح هذه الدوامة. فحتى الأموات يتحركون؛ لأننا لا ننفك نعيد تقويم الفنانين الكبار والأدباء والموسيقيين السابقين.

إنه درس الرياضة الرائع الذي يجسد تمثيلاً هذا التناوب بين لحظات السقوط ولحظات الانبعاث الذي نسميه قدرا، من خلال عملية المباراة أو السباق.

إنه يبين لنا أن الأمور لا تكون أبدا محسومة بالنسبة للناس الأحرار.

Obeikandl.com